الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

العولمة والاستراتيجية العربية

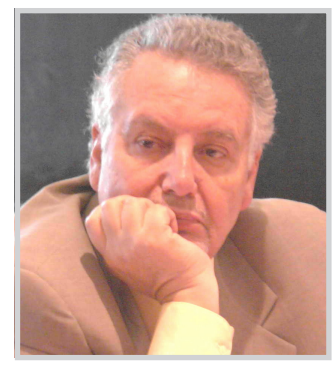

شاكر النابلسي
كاتب اردني - امريكا

"يُعقد في البحرين ، في مطلع كانون الأول القادم ٢٠٠٧ مؤتمر فكري ،تحت عنوان مهم وحيوي ومُلح ، وهو: "الاستراتيجية العربية لعصر العولمة"، في ظرف تاريخي عربي دقيق ، وفي وسط فوضى سياسية وثقافية تجتاح العالم العربي ، اختلطت فيها المفاهيم العلمية والسياسية والاقتصادية الدقيقة ، وخاض في نقاش هذه المفاهيم من يعلم ومن لا يعلم ، واختلط فيها الحابل بالنابل ، وأدلى الجميع بدلوهم - كالعادة - في آبار لا يعرفون قرارها. وأصبح الحديث عن العولمة في العالم العربي في نهاية القرن العشرين أشبه ما يكون بالفزع الكبير الشامل. وكأنها قنبلة عظيمة الأثر ألقيت في وسط العالم العربي ، فانفجرت ، وتناثرت شظاياها في كل مكان من العالم العربي ، حتى الأمكنة التي لا تزال تعيش أنظمة القرون الوسطى سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً."

وما بين التطلع والتوجس، الترحيب والتحذير، الاستبشار والتخوف، التمجيد والاتهام، تعامل معظم ما كُتب وجُلّ ما قيل مع العولمة، وكأنها مفاجأة سقطت على التاريخ من خارجه، كأنها كانت انقضاضاً على ما سبقها لا حصيلة له" كما قال مصطفى الحسيني في كتابه (عولمة منذ الأزل). ولم يُقرّ العرب حتى الآن أن العولمة يمكن لها أن تكون وسيلة فاعلة إلى إزالة الحدود والقيود والسدود من المآزق الرئيسة المُسببة للأزمات العربية المستعصية الحالية. وأن العولمة وإن بدأت من بوابة الاقتصاد، ودخلت إلى العالم العربي –بخفرٍ وحذر حتى الآن – من هذا الباب الواسع، وعبر عنها عالمياً بالشركات العابرة للقارات، وأن السلعة الواحدة أصبحت اليوم – مثالاً لا حصراً – فكرة أمريكية، وخامات أوروبية، وصناعة صينية، أو عكس ذلك، وتباع في كافة أسواق العالم. وعلى أية حال لم تعد المنتجات أياً كانت ذات هوية صناعية واحدة. فلم تعد هناك سلع كثيرة، ذات جنسية أو هوية خاصة. كما أصبحت الشركات الكبيرة العابرة للقارات، ذات رأسمال مختلط، وتؤدي إلى مصالح مشتركة. وقد سبق أن قلت في مقالات سابقة وهنا على صفحات "الوطن" بأن عرب قريش، هُم من بدأ العولمة الاقتصادية –في مفهومها المحدود والبدائي قبل أكثر من ١٥ قرناً – عندما وضعوا نظام "الإيلاف" الخاص بالقوافل التجارية المُنطلقة صيفاً وشتاءً من مكة إلى الشام شمالاً والى اليمن جنوباً، وأشركوا برأسمالها وحماية خطوط سيرها، معظم القبائل العربية ذات العلاقة. فيما أطلق الشاعر العربي القديم مطرود الخزاعي على العولمة/الإيلاف "الاختلاط"، وقال فيه يصف قريشاً التي كانت تتزعم عولمة القرن الخامس الميلادي:

الآخذون العهدَ من آفاقها
والراحلون لرحلة الإيلافِ
والخالطون غنيهم بفقيرهم
حتى يكونَ فقيرهم كالكافي

وبتفصيل أكثر فالعولمة الحديثة هي "الإيلاف"" العربي القُرشي القديم الذي أنشأه هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، في القرن الخامس الميلادي. وهو الذي كان يعرف عند العرب تجارياً بـ "رحلة الشتاء والصيف". وهي العولمة القديمة (الإيلاف) التي شقّت طريق التجارة الدولية بين الحجاز واليمن والهند جنوباً، وبين الشام والعراق ومصر شمالاً. ومن هنا، فالعرب هم أول من شقّ طريق العولمة في التاريخ التجاري، وعقدوا المعاهدات السياسية والتجارية مع الروم، والبيزنطيين، والأحباش، والمصريين، وغيرهم، لحماية طرق التجارة، وفتح الأسواق، وإزالة الحدود والسدود من أمام حرية التجارة، وتقريب المسافات بين الأقطار والشعوب، فيما يُعرف اليوم بالعولمة. وهو ما عبّر عنه فيلسوف البيان والبلاغة العربية، عبد القاهر الجرجاني، في كتابه "دلائل الإعجاز" بقوله: "تواصل الأضداد يُقرّب المسافات". وهذا هو المعنى البسيط والسريع للعولمة الاقتصادية التي تدور الآن في العالم، والتي تصدى لها معظم المثقفين العرب كعداوة قادمة من الغرب للقضاء على الهوية العربية، والبُعد القومي للعرب، وكأن العرب لم يتجزأوا بعد إلى طوائف ودويلات وأقاليم حسب مذاهبهم، وطوائفهم، برغم وحدة تاريخهم ولغتهم. وكأن العرب موحدون، تجمعهم وحدة قومية متينة. فحقبة الدولة القومية السيدة، والهوياتٍ المحافظة ظاهرياً على نقاوتها الآفلة، تمر اليوم بفترة انتقال عاصفة عنوانها الكبير العولمة، بما هي مشروع عالمي لتوحيد العالم في السوق، وتوحيد الهويات في هوية عالمية متجانسة أكثر فأكثر. فاليوم تطرح الإنسانية من جديد سؤال الهوية، وهي تقف في برزخ عصر الهويات والدول القومية، أو ما دون القومية المتناحرة وعصر القرية الكونية التي قد تُنتج في السيناريو المتفائل وعياً كونياً مطابقاً يتجاوز رواسب الإثنية المركزية ومنتوجها الفرعي، وهي النرجسيات القومية والعصبيات الهوياتية، كما يقول المفكر التونسي العفيف الأخضر.

الخطر الداهم والوباء القادم

لعل الهدف من المؤتمر المذكور، هو تبيان فيما إذا كانت العولمة خطراً داهماً ووباءً قادماً، أم أنها بالنسبة للعرب وعد صادق، وخير دافق. وسواء كانت العولمة مظهراً ايجابياً أو سلبياً للعرب، فإنها تسير نحونا بسرعة هائلة. فخلال السنوات الثلاث الماضية، لم تعد العولمة في العالم العربي مقتصرة على الجانب الاقتصادي، بقدر ما شملت الجانب القضائي (المحكمة الدولية لمحاكمة قتلة رفيق الحريري وتعيين لجنة اختيار القضاة من جنسيات مختلفة منهم مصري وآخر نرويجي) والعلمي والتعليمي والإعلامي والمعلوماتي بفضل تقدم الانترنت، وزيادة عدد المشتركين فيه في العالم العربي، وبفضل المزيد من الطلبة العرب المبتعثين للدراسة في الغرب، وبفضل زيادة حجم الاستثمارات الأجنبية في العالم العربي وخاصة في دول الخليج، وبفضل تداخل المصالح السياسية والاقتصادية في المنطقة.

فإذا كانت العولمة خطراً داهماً ووباءً قادماً، فهي بالنسبة للعرب كما صورها ونقلها إليهم بعض مفكريهم الذي قالوا فيها ما قاله مالك في الخمر. ومن أقوالهم فيها:

- العولمة، هي وحدة العالم الشرير، كما يقول المفكر المصري الماركسي محمود أمين العالم.
- العولمة، هي الهيمنة التي تدمرنا، كما يقول عبد الكريم عمرو.
- العولمة، هي حضارة المكادو كوكا (مطاعم مكادونالد للوجبات السريعة، وشراب الكوكاكولا الأمريكي) كما قال حسن نصر.

وإذا كانت العولمة وعداً صادقاً وخيراً دافقاً، كما صورها ونقلها إليهم بعض المفكرين الذين قالوا فيها:

- العولمة في الحقيقة نظام عالمي يأتي ليجسد حصيلة كل ما حفل به التاريخ الحديث للبشرية، لتأسيس تاريخ عولمي جديد للإنسان، كما قال سيار الجميل المؤرخ العراقي المعاصر.
- العولمة نتيجة طبيعية لمسار تحولي وتراكمي للحداثة. وثمرة عليا لمنجزات الحداثة، برزت بعد أن أخفقت الحداثة في تحقيق رهاناتها الكبرى على مستوى العالم، كما قال وجيه قانصوه الباحث اللبناني.
- العولمة نظام فكري واقتصادي وسياسي، لا بُدّ من فهمه وتفكيكه والتعامل معه بما يلزم من أدوات المعرفة في مستويات الاقتصاد والسياسة. أنه نظام العصر الآتي، ولكن القبول الكلي الذي تمارسه الأنظمة في المستوى الاقتصادي، والقبول الحذِر الذي تمارسه في المستوى السياسي، لا بُدّ من أن يستتبعه قبول للثقافي، لأن العولمة نظام غير قابل للانفصام. وهو نظام ليس لمجرد الرفض والقبول، كما قالت الأكاديمية والباحثة اللبنانية فهمية شرف الدين.

ونكتفي بهذا القدر من الشهادات التي ناصبت العداء للعولمة من جهة، والتي دعت إلى التأني، وفهم، وتحليل العولمة. ومن الواضح من خلال هذه الشهادات الرافضة والمرحبة بالعولمة، أن الذين رفضوا العولمة رفضوها بطريقة سطحية فجة، ولأنها قادمة من الغرب ومن أمريكا على وجه الخصوص، ولم يرفضوها بطريقة علمية موضوعية كما فعل الجانب الآخر. مما يدل على أن من هاجم العولمة وبالتالي رفضها، لم يكن عالماً بها ودارساً لها، كما فعلت مجموعة من المفكرين والباحثين العرب.

العولمة بين الجد والهزل

أصبحت العولمة هذه الأيام "موضة ثقافية"، ووسيلة للنجومية الثقافية والفكرية.

فكل مثقف أو مفكر يريد أن يصبح نجم الصحافة السائر وعلَم التلفزيون الدائر، ما عليه إلا أن يتصدى للعولمة مؤيداً أو رافضاً، مادحاً أو شاتماً، شاكراً أو مستغيثاً، كما كان عليه الحال قبل سنوات بالنسبة للعلمانية، وكما كان عليه الحال قبل ذلك بالنسبة للحداثة. وسوف تزيد شهرته وتلمع نجوميته أكثر فيما لو عرج على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط وجلدها شاتماً.

وإلى هذه اللحظة، لم يأخذ الشارع العربي العولمة التي يتحدث عنها المثقفون على محمل الجد، كما لم يفهم أحد في الشارع العربي معنى العولمة التي يتحدث عنها المثقفون، ويخيفون المواطن العربي منها، وينصبون المتاريس وخطوط الدفاع الوهمية في وجهها. ونقول خطوط دفاع وهمية لأن العولمة الكاملة الزاحفة المهددة التي يتحدث عنها المثقفون العرب بفزع شديد، ستصل العالم العربي في مرحلة متأخرة جداً، فيما لو علمنا أن العولمة ليست عالمية في حقيقتها كما يؤكد بعض الباحثين. وأن النشاط التجاري المتعدد الجنسيات ما زال محصوراً في عدة دول كبرى فقط وفي الدول الصناعية. وهناك بعض النشاطات التجارية المبعثرة في دول العالم الثالث. وأن أغلب سكان الكرة الأرضية ما زالوا خارج نظام العولمة، وهم الذين بلا عمل أو رزق، وينمون كل يوم بسرعة أكبر من سرعة نمو الجيش العولمي.

يقول المفكر التونسي الحبيب الجنحاني في (العولمة في الفكر العربي المعاصر، ص٢): "أن المثقفين العرب يعيدون مرة أخرى إنتاج القضايا المطروحة في المجتمع الغربي. فقد فعلوا ذلك مع الحداثة، ومع الديمقراطية، ومع مختلف مدارس النقد الحديثة في الفنون والآداب. ففئة من المثقفين العرب أعادت الإنتاج مع محاولة النقد والتجديد، وفئات أخرى اجترت اجتراراً".

فانصرف المواطن العربي عن كلام المثقفين حول العولمة، وراح يمارس نواحي في العولمة تخدم حياته وتيسرها. فالمواطن العربي يمارس في حياته اليومية العولمة الاقتصادية من خلال البنك الذي يتعامل معها، ويمارس في حياته اليومية العولمة الثقافية من خلال قناة التلفزيون الفضائية التي يشاهدها كل مساء وشبكة الإنترنت التي يلجأ إليها لقراءة الصحف العربية الممنوعة الكثيرة، وتسيير أعماله اليومية. وفي الواقع فإن أجزاء كثيرة من العالم العربي بدأت العولمة في ناحية من النواحي. وبدت "الدولة العربية في أحوال كثيرة نصف معولمة" كما يعترف المفكر المصري محمود عبد الفضيل ومجموعة من المفكرين معه في كتاب (العرب والعولمة، ص٢٠٥). وبدا العرب متعولمين اقتصادياً وثقافياً وإعلامياً وحتى اجتماعياً إلى حد ما، ولم يبق غير إكمال الطريق، كما لم يبق غير العولمة السياسية وهي القادمة. فقد ظلت "الجماهير أكثر حكمة وتعقلاً في فهم الأحداث والتعامل مع الوقائع من النُخب التي كانت تقرأ العولمة قراءة خلقية مثالية أو قراءة أيديولوجية نضالية رجعية، من خلال ثنائية الأنا والآخر، ومن خلال الحكم على ظاهرة العولمة بما قبلها، كما يؤكد المفكر اللبناني علي حرب في كتابه (حديث النهايات، ص٢٢، ٤٣، ٤٦). وظلت العولمة في أذهان المثقفين مفهوماً متداولاً محصوراً خلف جدران المؤتمرات والندوات الفكرية المتخصصة. وظلت مفهوماً ذهنياً تجريدياً في نظر كثير من المفكرين العرب. ثم ما قيمة وعي المثقفين لأسرار العلاقة الطويلة بين العرب والغرب إذ لم يبلغ هذا الوعي الفئات الاجتماعية والسياسية المعنية صاحبة المصلحة في التغيير؟". ولعل الخروج من هذا المأزق –مأزق الهوة بين الواقع المُعاش والفكر الهائم – هو "إقامة علاقات نقدية مع الذات والأفكار لإحداث قفزة هائلة ننتقل بها من لغة الشعار وعقلية الطوبى، ومنطق الاستلاب إلى لغة. ولم نكن نملك نحوها إلا قذفها بشتى التهم، وبمختلف أساليب السباب. ولم تتم مناقشتها عقلياً من خلال الحقائق التاريخية والأرقام الاقتصادية. الفهم، وعقلية الخلق، ومنطق الحدث والتكوين على النحو الذي يتيح لنا المساهمة في تغيير الواقع وصناعة المشهد العالمي"، كما يقول علي حرب في كتابه المذكور.

وكما قابلنا الحداثة في مطلع الخمسينات من القرن العشرين بالفزع منها، وكما قابلنا العلمانية في السبعينات بالخوف منها والسخط عليها، وذهبنا بها مذاهب شتى رمت دعاتها بالكفر والإلحاد والشرك برب العباد، فقد قابلنا العولمة، أو ما يُعرف بالعصر الرقمي Digital Age في نهايات القرن العشرين، أو ما يُطلق عليه "عصر تكنولوجيا المتعة" بالخوف والفزع منها، والسخط عليها، ورميناها بأنها رجس من عمل الشيطان أو الشرير الأكبر (أمريكا) كما يصفها جون غراي في كتابه "الفجر الزائف". وكان هذا الفزع وهذا الخوف من كل مفهوم جديد يظهر في العالم مبعثه ازدواجية شخصية الإنسان العربي بوضعه الحالي وبثقافته المحدودة، وانغلاقه وقطيعته مع تراثه ومع العالم أيضاً، بحيث أصبح يخشى من كل جديد في الفكر، ويفزع منه، وينأى عنه.

وتتجلى ازدواجية الشخصية العربية هذه في ازدواجية التعامل والسلوك الاجتماعي، وازدواجية لغة التعامل الاجتماعي، وازدواجية النزعة الانتقادية، والازدواجية الحضارية، وأخيراً في ازدواجية موقفه من الغرب. فهو يقبل على منتجاته، ومعاهده، وكلياته، وأفلامه، وكتبه، وموسيقاه، وطعامه، وملبسه، ووسائل مواصلاته، ويتمتع في حياته بإنجازات الغرب التكنولوجية والعلمية، ولكنه في الوقت نفسه يقف موقف المهاجم والمداهم لكل فكر جديد، وخطوة جديدة من شأنها أن تيسّر الحياة، وتفتح لها آفاقاً جديدة.

وإذا كانت ازدواجية الشخصية العربية سبباً من أسباب فزع العرب من العولمة، فإن المثقفين العرب كانوا سبباً آخر لهذا الفزع. فقد أفزع المثقفون العرب الإنسان العربي – نتيجة لأميته الهجائية والثقافية –من العولمة، في الوقت الذي كان يمارس بعض آلياتها من حيث لا يدري، من دون خوف أو جزع.

رؤية استشرافية لسيناريوهات المجابهة بين واشنطن وطهران

"مازال العديد من المراقبين للازمة بين واشنطن وطهران بشأن الملف النووي الإيراني يعولون على الرأي العام الأمريكي كرادع لمنع حرب قد تمتد من مسرح العمليات الإيراني إلى الخليجي إلى كل منطقة الشرق الأوسط ، وتهدد احد أطرافها بشن عمليات إرهابية ضد مصالح أوروبا و الولايات المتحدة في المنطقة والعالم ، خاصة إذا ما أدرك الرأي العام مبكراً بواسطة وسائل الإعلام أن هذه العملية العسكرية لن تكون إلا بداية مواجهة بأبشع الوسائل. ويمكن أن يتحول الرأي العام إلى رادع ضمني يمنع شن الحرب أصلا ضد إيران إذا ما وضعته الإدارة الأمريكية في حساباتها. واضافة إلى الرأي العام الأمريكي ، هناك من يفترضون أسباباً أخرى قد تحول دون تنفيذ العملية العسكرية ضد إيران ، منها حرص الإدارة الأمريكية على ألا تقلب الطاولة في الشرق الأوسط بفتح جبهة جديدة ، وإثارة مسلسل من المتاعب والقلاقل ، ومنها انعكاسات إي عمل عسكري جديد في منطقة الخليج على سوق النفط الذي يمكن أن يصل سعر البرميل من جرائه إلى أرقام خيالية قد تلحق أضرارا"بالغة بالدول الصناعية المستهلكة للبترول..

د.عماد علو
كاتب

المقدمة

إن الرؤى الأمريكية للتعامل مع إيران يمكن إجمالها كما يلي:

- إن صراع أميركا مع إيران ربما يكون أكثر إضراراً بالمصالح الأمريكية من الحرب على العراق، ذلك أن رد طهران المحتمل سيكون استخدام شبكتها لضرب أهداف أمريكية حول العالم بما في ذلك داخل الولايات المتحدة.
- لابد من اعتماد حلول دبلوماسية لتجنب المواجهة العسكرية.
- أن أي عملية عسكرية ضد إيران ينبغي أن تتوخى هدف إجبارها على الحضور إلى مائدة مفاوضات تهدف للتوصل إلى اتفاق مقبول أمريكياً في نهاية المطاف حول النفوذ والتدخل الإيراني في العراق، وليس حول البرنامج النووي الإيراني وحده.

وفي ظل الصعوبات الداخلية والإقليمية والدولية للتوجه إلى الخيار العسكري مباشرة، سيكون المخطط الأمريكي للذهاب إلى عملية عسكرية في هذه الحالة تصعيدياً ومتدرجاً.. بدأ باستصدار قرارات تحذيرية من مجلس الأمن، يتلوها فرض عقوبات سياسية واقتصادية، وقد تستمر هذه المرحلة عدة شهور، فإن لم تستجب إيران لقرارات مجلس الأمن فمن المتوقع أن يكون للإدارة الأمريكية المبررات لشن عملية عسكرية ضد إيران يعتقد الكثير من المراقبين بأنه لن يكون بالإمكان السيطرة عليها، حيث ستنتقل العمليات تلقائياً من ضرب الأهداف العسكرية المحدودة إلى أهداف عسكرية غير محدودة، ثم إلى ضرب أهداف مدنية.. الخ.والسؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن القاريء ترى ما هي السيناريوهات المحتملة لهذه المواجهة العسكرية بين واشنطن وطهران؟ هذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه في هذه الدراسة الموجزة.

واقع اللحظة الحالية

واقع الأمر أن اللحظة الحالية – مهما كانت نتائجها – تعتبر لحظة فريدة، على مسار وضع أسس سياسة خارجية جديدة للولايات المتحدة، فثمة أسباب كافية تقلص من حجم المعارضة الأمريكية لتنفيذ مثل هذه العملية. ويبدو أن هذه الإدارة مصممة على ضرب إيران، ومنطقها في ذلك مبسط إلى حد يثير القلق؛ إذ إنها تعمل طبقاً لمعادلة أن النظام الإيراني سيئ قبل الضرب، ولن يكون أسوأ بعده، بل إنه سيخسر قسماً ضخماً من آلته العسكرية وأغلب مكونات برنامجه النووي وهذا ما ركز عليه خطاب الرئيس بوش في كلية الدفاع الوطني الأمريكية الأخير يوم الثلاثاء ٢٠٠٧/١٠/٢٢ عندما حذر من أن الصواريخ الإيرانية يمكن أن تصل إلى أهداف في أوروبا والولايات المتحدة إذا لم يتم منع إيران من امتلاك القدرة على تصنيع وامتلاك مثل هذه التكنولوجيا.ولكن بوش لم يتطرق إلى السلوك الإيراني المحتمل بعد ضربة جراحية جوية وصاروخية وإن كانت ساحقة، حيث انه قد لا تتصرف على النحو نفسه الذي يمكن أن تتصرف به من دون هذه الضربة، وتم بعد ذلك محاصرتها بأسلحة نووية موجهة إلى مدنها الأساسية ومواقعها العسكرية والإستراتيجية كقوة ردع محتملة. لذلك فإنه من الصعب القول بأن ما تقوم به الولايات المتحدة حالياً من استعداد لعمل عسكري ضد إيران هو من قبيل الحرب النفسية الموجهة ضدها!!

توازن القوى في الشرق الأوسط

أن امتلاك إيران لتكنولوجيا السلاح النووي سيجعل منها القوة الأولى في الشرق الأوسط بالنظر لما سيتحقق لها من ثقل أكبر في الميزان الاستراتيجي في المنطقة، يضاف إلى مزايا جيوبوليتيكية أخرى تتمتع بها، أبرزها المساحة الشاسعة (١,٦٤٨,٠٠٠ كم٢)، وقوة بشرية تصل إلى ٧٥ مليون نسمة، إلى جانب قوة اقتصادية كبيرة يدعمها عائدات نفطية تبلغ حوالي ٢٠ مليار دولار سنويا، ناهيك عن موارد زراعية وصناعية ضخمة تحقق لها الاكتفاء الذاتي في احتياجاتها الرئيسية في حالة فرض عقوبات عليها، يدعم كل هذا نظام حكم ثيوقراطي متشدد يسعى لنشر ثورته، مما سيجعل إيران تشعر بحرية تحرك أكثر في المنطقة أكبر بكثير من إسرائيل، وهو ما انعكس في نفوذها في سوريا ولبنان من خلال حزب الله، وفى فلسطين من خلال منظمة حماس وغيرها من المنظمات الفلسطينية التابعة لدمشق، وفي العراق أيضا" مما دفع الولايات المتحدة للجلوس معها على طاولة التفاوض بشان الوضع الداخلي في العراق.و لكي تبقى موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط لمصلحة إسرائيل وهو ما يخدم المصالح الأمريكية والغربية في المنطقة لابد من إبقاء الأمور على ما هي عليه قبل شروع إيران بتطوير برنامجها النووي الراهن وهذا يعني وضع حد للطموحات النووية الإيرانية بأي ثمن، وهنا يفرض الدور الإسرائيلي نفسه في معادلة الصراع مع إيران.

الدور الإسرائيلي

تعتبر إسرائيل أن امتلاك طهران لأي سلاح نووي تهديدا" مباشرا" لها لذلك فان الدور الإسرائيلي في أي عملية عسكرية محتملة ضد طهران سيفرض نفسه كخيار استراتيجي لا بد منه لمنع إيران من استكمال مشوارها النووي، وهو ما أكدته دراسة لمركز أبحاث العولمة Center for Research Globalization""CRG تحت عنوان (الهجوم الأمريكي - الإسرائيلي المخطط على إيران). أن إسرائيل قامت ببناء مخزون ضخم من المعدات العسكرية استعداداً لعملية عسكرية ضد إيران، وأنها في هذا الشأن تسلمت مؤخرا من الولايات المتحدة حوالي ٥٠٠٠ قطعة من الذخائر الذكية التي تطلق من الجو، بما في ذلك ٥٠٠ قنبلة مضادة للاستحكامات الحصينة Bunker Buster Bombs طراز BLU-109 وأن الذخيرة التي تعمل باليورانيوم المستنفد Depleted Uranium الموجودة في المستودعات الإسرائيلية تكفي وتزيد عن الحاجة لتدمير جميع الأهداف النووية والعسكرية الإيرانية المخطط ضربها بواسطة المخططين العسكريين الأمريكيين والإسرائيليين، مع استثناء منشأة (ناتانز) النووية الإيرانية المخصصة لتخصيب اليورانيوم بواسطة أجهزة الطرد المركزي، وأيضا صناعة هذه الأجهزة، حيث توجد معدات وأجهزة هذه المنشأة على عمق كبير تحت الأرض يصل إلى ٣٠ متر، لذلك فإن تدميرها سيتطلب استخدام ذخيرة أقوى على الاختراق، ولذلك سيخصص لها الطراز Bunker Buster - BLU113 وهي قنبلة مضادة للتحصينات و القنبلة GBU-28 ويعتبر هذا النوع من الذخائر الجوية من بين الأسلحة التقليدية المميتة والأكثر خطورة على مستوى العالم، وقد استخدمت في عام ٢٠٠٣ عند غزو العراق وتسببت في قتل آلاف المدنيين نتيجة انفجاراتها الضخمة. وتستطيع هذه القنبلة اختراق الطبقات الأرضية ثم تنشر بعد ذلك موجة حرارية وضغطا كبيرين وكافيين لتدمير العناصر المعدنية والكيميائية والبيولوجية الموجودة في تحصينات تحت الأرض. كما تم تجهيز المقاتلات الإسرائيلية F-15I بالتجهيزات التي تمكن من قصف هذا النوع من الذخائر الذكية جو-أرض.

وكانت هناك عدة مؤشرات تدل بشكل واضح على الدور الإسرائيلي في تنفيذ العملية العسكرية الأمريكية ضد إيران، ففي كانون الثاني ٢٠٠٥ أجرت القوات البحرية الإسرائيلية والتركية والأسطول السادس الأمريكي مناورات تدريبية في شرق البحر المتوسط قبالة الساحل السوري. وفى شباط ٢٠٠٥ شاركت إسرائيل أول مرة في مناورات عسكرية مع الناتو.

وفى مارس ٢٠٠٥ تم إجراء مشروعات تدريب مشتركة بين إسرائيل والولايات المتحدة داخل إسرائيل تتعلق أساسا باختبار قدرات وسائل الدفاع الجوى (باتريوت) و(حيتس) على صد هجمات صواريخ شهاب الإيرانية. وقد أرسلت أطقم صواريخ (باتريوت - باك ٣) الأمريكية الموجودة في ألمانيا لتشارك في المناورة التي أطلق عليها (أفعى شجرة العرعر Juniper Cobra

معوقات الدور الإسرائيلي

إلا أن الأمر حيال التعامل مع البرنامج النووي الإيراني من وجهة النظر الإسرائيلية يختلف تماما عن أسلوب تعاملها مع مفاعل (أوزيراك/تموز) النووي العراقي في أيلول ١٩٨١ عندما دمرته غارة جوية إسرائيلية بواسطة ١٢ طائرة مقاتلة/قاصفة متعددة المهام، بما أدى إلى إيقاف البرنامج النووي العراقي نهائيا. ويرجع الاختلاف عن الحالة الإيرانية إلى عدة أسباب، أبرزها:

١- كثرة المنشآت النووية الإيرانية وانتشارها على مساحة واسعة.

٢- بعد المسافة بين المطارات الإسرائيلية والأهداف النووية الإيرانية التي قد تصل إلى أكثر من ١٥٥٧كم، حيث سيتعين طائرات الضربة الاسرائلية اختراق الأجواء الإيرانية إما من تركيا وشمال العراق لصعوبة التحليق فوق السعودية والأردن، أو إن المقاتلات الإسرائيلية قد تعيد تمركزها مسبقا في مطارات عراقية بمساعدة القوات الأمريكية في العراق.

٣- سيكون من الصعوبة على تل أبيب تامين العدد الكافي من الطائرات لقصف الأهداف النووية والإستراتيجية الإيرانية في آن واحد، خاصة وحدات الصواريخ شهاب لكي تمنعها من توجيه الضربة الثانية الانتقامية ضد إسرائيل.

٤- سيكون من الصعوبة على إسرائيل لوحدها تأمين تخطيط معقد ودقيق وحل المشاكل الوجيستية لتوجيه ضربة ضد إيران تحقق هدف تعطيل البرنامج النووي الإيراني لعدة سنوات.

لذلك فلا بديل أمام إسرائيل لتحقيق هذا الهدف سوى الاشتراك مع الولايات المتحدة في العملية العسكرية ضد إيران، أو الاعتماد فقط على القوات الأمريكية في تنفيذها، ووجه الخطورة في النظرة الإسرائيلية يرجع إلى قدرة الصواريخ البالستية الإيرانية طراز (شهاب) على تلويث مساحات كبيرة من المناطق السكانية الإسرائيلية إذا ما تم تسليحها برؤوس كيماوية، حيث بإمكان الصاروخ الواحد تلويث ٥٠ هكتاراً، فإذا ما أطلقت إيران ١٠٠ صاروخ شهاب ضد إسرائيل من إجمالي حوالي ٥٠٠ صاروخ تمتلكها فإن بإمكانها تلويث حوالي ٥٠٠٠ هكتار، وهو ما لا تستطيع إسرائيل تحمل خسائره. كما تتوقع إسرائيل تعرض مدنها لصواريخ كاتيوشا من لبنان، والقسام من غزة إذا ما تعرضت إيران لعملية عسكرية من جانب أي من الولايات المتحدة أو إسرائيل.

السيناريوهات المحتملة للمواجهة

مما سبق يتضح جليا أن واشنطن لا تملك سياسة واضحة تجاه إيران حتى الآن وهي تتخبط بين التهديد والوعيد من جهة، وبين عرض التفاوض حول المسألة العراقية فقط من جهة أخرى، إلا أن لب المشكلة هو إبقاء الاحتكار النووي الإسرائيلي في المنطقة دون منازع، وتأمين مصالح إسرائيل وتحقيق أهدافها، حتى وإن كان ذلك على حساب آلاف الضحايا من الشباب الأمريكي. وهو ما يفسر بالتالي الجهود المستميتة التي تبذلها الإدارة الأمريكية من أجل محاصرة إيران وفرض عقوبات عليها، لغرض الإطاحة بنظام الحكم القائم في طهران لاحقا". إن السيناريوهات المحتملة لتطور المواجهة بين واشنطن وطهران يمكن أن تكون على النحو التالي:

- سيناريو السلام: حيث يتوقع، في ظل صعوبة التوجه إلى الخيار العسكري أن يتم الانتظار حتى تنضج ظروف يتم فيها مصالحة على الطريقة الكورية –الأمريكية، وهذا السيناريو تؤكده سياسة التشجيع الدائم للإيرانيين على التخلي الطوعي عن برنامجهم النووي الطموح يعزز هذا الاستنتاج أن الحوار بين إيران والولايات المتحدة في القنوات السرية لم ينقطع رغم كل ما يجري، وعزز هذا الحوار بفتح قناة علنية للمباحثات مع السفير الأمريكي في بغداد، بالضرورة لن تقتصر فقط على الملف العراقي بل ستدخل فيها ملفات أخرى أبرزها الملف النووي للوصول إلى صفقة متكاملة يتم من خلالها تذويب الأزمة من خلال حلول وسط تحفظ للولايات المتحدة ماء وجهها بأن تعطي إيران ضمانات كافية من خلال الوكالة الدولية بعدم تحويل برنامجها النووي نحو الجانب العسكري، وستشارك الصين وروسيا والترويكا الأوروبية في هذه الضمانات. مع الاعتراف بالدور والثقل الإيراني والتعامل معه بندية سياسية، في رسم مستقبل العراق وأمن منطقة الخليج، وبإشراك الوكالة الدولية للطاقة في الإشراف على الأبحاث النووية الإيرانية، مع تقديم حوافز أمريكية وأوروبية لإيران تتمثل في مساعدات تكنولوجية نووية تخدم الأهداف السلمية، وضمانات أمنية، ودعم التبادلات التجارية وتشجيع الاستثمار الأوروبي داخل إيران، خاصة في مجال صناعة النفط ومشتقاته.
- سيناريو الحرب: وإذا ما قررت الولايات المتحدة الذهاب إلى خيار المجابهة العسكرية مع إيران، فان التبريرات القانونية التي ستسوقها ستتمحور حول ادعائها بأنها تقوم بعمل استباقي وتمارس (حقها المشروع) في الدفاع عن النفس بموجب ميثاق الأمم المتحدة! وسيكون التبرير الأمريكي بالدفاع عن النفس أن إيران تقوم حاليا ومنذ فترة بتطوير سرى لتكنولوجيا تتيح لها إنتاج سلاح نووي في المستقبل، مما ساهم في خلق جو من فقدان الثقة في سياستها. يعزز هذا التبرير الأمريكي رفض إيران الانصياع لمطالب الوكالة الدولية للطاقة ومجلس الأمن بإيقاف عمليات تخصيب اليورانيوم. ومن غير المحتمل أن تعول واشنطن على استحصال تخويل من مجلس الأمن لضرب إيران، حيث سيحول الفيتو الروسي والصيني دون تمرير قرار لمجلس الأمن بذلك. وسيكون السيناريو الأمريكي في هذه الحالة تصعيديا ومتدرجا، يبدأ باستصدار قرارات تحذيرية من مجلس الأمن، ثم إنذارات يتلوها فرض عقوبات سياسية واقتصادية مثل(منع سفر المسئولين الإيرانيين إلى الدول الغربية، وقطع العلاقات الدبلوماسية، وتجميد الممتلكات والأموال الإيرانية والحصار الاقتصادي..الخ) وسيبرر المسؤولون الأميركان تلك القيود بأنها ستحد من قدرة إيران في الحصول على التكنولوجيا والخبرات العلمية المطلوبة لتطوير برنامجها النووي من الخارج. وقد تستمر هذه المرحلة لأشهر عدة، فإن لم تستجب إيران لقرارات مجلس الأمن بإيقاف برنامجها النووي فمن المتوقع أن يكون لدى الإدارة الأمريكية في هذه الحالة المبررات لشن عملية عسكرية ضد إيران. ولكن قبل كل هذا وذاك وقبل أي تعرض عسكري أمريكي على إيران فان واشنطن ستجد نفسها ملزمة حتما بتامين مضيق هرمز لضمان استمرار تدفق إمدادات النفط عبره إلى أوربا والعالم،كما لابد لها من اتخاذ ما يلزم لطمأنة دول الخليج العربية من أي ردود فعل إيرانية محتملة قد تلحق الضرر بأمن واستقرار واقتصاديات تلك الدول. ومن جانبها إيران سوف لن تقف مكتوفة اليدين وستقوم بالرد ضمن إمكانياتها الصاروخية وشبكة (أصدقائها) في المنطقة كما هددت هي بذلك، ومن المحتمل أن تتمكن إيران من توجيه ضربات صاروخية إلى بعض الأهداف العسكرية الأمريكية في العراق والمنشآت الاقتصادية في الخليج العربي و إسرائيل وسوف تحاول عرقلة الملاحة وتصدير النفط عبر مضيق هرمز، إلا أن قدرة إيران على إدارة عمليات عسكرية (برية وجوية وبحرية وصاروخية)مضادة لفترة زمنية طويلة ستكون محدودة وسوف تتناسب مع شدة واتساع وسرعة تنفيذ القوات المهاجمة لمهامها ضد الأهداف الإيرانية المطلوب تدميرها.

استنتاج نهائي

على الرغم من أن مؤشرات الواقع والاتهامات والتصريحات المتبادلة بين كل من واشنطن وطهران وتصاعد حمى التسلح والتوتر في المنطقة التي تقترب من بيئة مشابهة لتلك التي سبقت غزو العراق إلا أن في الأفق لازال هناك ما يشير إلى نوايا جدية لدى كل من واشنطن وطهران في تجنب مجابهة عسكرية قد تمتد من مسرح العمليات الإيراني إلى الخليجي إلى كل منطقة الشرق الأوسط يعزز ذلك حرص الإدارة الأمريكية على ألا تقلب الطاولة في الشرق الأوسط بفتح جبهة جديدة، وإثارة مسلسل من المتاعب والقلاقل، ومنها انعكاسات إي عمل عسكري جديد في منطقة الخليج على سوق النفط الذي يمكن أن يصل سعر البرميل من جرائه إلى أرقام خيالية قد تلحق أضرارا"بالغة بالدول الصناعية المستهلكة للبترول والأمر نفسه بالنسبة لطهران التي تعرف أن الذهاب إلى أي مجابهة عسكرية مع واشنطن من شانه أن يقوض كل الجهود التي بذلتها على مدى العقدين الأخيرين للحصول على التكنولوجيا النووية بما يمكنها من لعب دور فاعل في المنطقة تعتقد أنها أهل له، وعليه فان المنطقة اليوم على مفترق